في الحروب

ماذا كان ينتصر الإسلام

للأستاذ عبد العزيز البشري

ما وقع حدثٌ من أحداث هذه الحرب، وخاصةً في أسبانيا التي أصبحت معتركاً حامي الوطيس، بين دولة صغيرة، قليلة العَدَد، قليلة العُدد، ضئيلة الموارد، كلٌّ همها من العيش أن تحيا داخل حدودها بالأمن والسلام، قانعةً باليسير مما أفاءت عليها الطبيعة، وما يعالجه أبناؤها النشيطون من فنون الصناعات، وما يُرجونه إلى أسواق العالم المختلفة من ألوان التجارات؛

لقد لخص «الطليان» تلك المقاومة المجيدة في ثنتين وعشرين سنة، فإذا هي قد تركزت في البلاغ الرسمي الذي صدر عقب تلك الأحداث يقول:

«هكذا انتهت حياة الزعيم العظيم «البرقاوي» أحد تلاميذ مدرسة «جنبوب» القرآنية»

* * *

فيا أيها المسلمون في مشارق الأرض ومغاربها:

مَن مبلغ أبناء هذا الجيل من المسلمين: أن تاريخ البطولة الإسلامية لا يتصل حاضره بماضيه، إلا إذا وجدت مدارس على غرار مدرسة جنبوب القرآنية، تعلم القرآن، وتعلم العقائد، وتعلم العزة والكرامة!!

الجديدي

لها من كلّ أولئك مَقنع وليس لها فيما وراءه أي مطمع، فإذا كان لها جيش أو كان لها أسطول فبقدر ما تُؤمّن الحدود وتمنّع الثغور، ولو إلى حين — أما الطرفُ الثاني من هذا المعترك فدولةٌ عظيمة، قويةٌ بعَددها، قويةٌ بعُددها، قوية بصناعاتها وبتجاراتها، قوية بمستعمراتها الواسعة الشاسعة التي ضمنت أرَضوها من الكنوز المدنية ما يُغني في كل شيء من أسباب الحياة القوية الغنية ليس أعزّ منها في هذا العالمَ حياة — ومع هذا فإننا نرى أن هذه الدولة الصغيرة الدقيقة في كل شيء، لا تفتأ تضرب هذه الدولة العظيمة الضخمة في كل شيء، كلما طلعت الشمس ضربة، وتركلها كلما غربت الشمس ركلة. وبين ذلك لا تفتأ في كل ساعة تجرعها من الصاب والعلقم ما يَفري الحناجر، ومن الغِسلين ما يذيب الأحشاء. وتلوّن لها من الهانات ما أجراها مثلاً للخزي على ألسُن العالَمين

لعمري ما وقع حدثٌ من هذه الأحداث إلا أذكرني سيَر العرب السابقين، وأحضرني شأنَهم في فتوحهم ومغازيهم. فلم يكن هؤلاء في الأكثر الأغلب أكثر من عدوّهم عَدداً، ولم يكونوا كذلك أقوى منه عُدداً، ولم يفوقوه في تنظيم الجيوش وتنسيق الكتائب، وتدبير المكايد، وإحكام خطط الحرب، وتدبير وسائل الكر والفر؛ بل لقد كانوا أضعف وأهون شأناً في كل أولئك جميعاً! ومع هذا فإنهم ما صارعوا إلا صرعوا، ولا قارعوا إلا قرعوا، ولا شدوا إلا ظفروا، ولا حاولوا إلا قهروا، ولا هجموا إلا انتصروا؛ ففتحت بين أيديهم أبواب المعاقل، ومهدت لهم السبل إلى أمنع الدائن، وحشدت لهم أنجم المغانم، واستأسر لهم من القبائل أضعاف أضعافهم في يسر، يلفت عين الدهر. وكذلك لم تجهد دورة الفلك إلا قرناً واحداً حتى دانت لهم مناكب الأرض، وذلت نواصي البر والبحر![1]

(١) كان يوم اليرموك لا يزيد جيش العرب فيه على سبعة وعشرين ألفاً، إذ كان جيش الروم لا يقل عن مائتي ألف مقاتل، أما حرب القادسية سنة ١٦ هـ، فكان جيش العرب بين تسعة آلاف وعشرة، في حين كان جيش الفرس لا يقل عن مائة وعشرين ألفاً، وأما فتح الأندلس سنة ٩٢ فلم يزد جيش المسلمين النزاة فيه على بضع مئات من العرب وعشرة آلاف من البربر، بينما كان عدد جند العدو لا ينقص عن مائة ألف، ومما يلبغي ذكره هنا أن هذا الفتح العظيم تم في ثمانية أيام لا أكثر!

إذن لم يظفر العرب ، فى حروبهم ، كل هذا الظفر ، ولم يتهيأ لهم ما دوّخوا من البلاد ، وما ملكوا من الأقطار ، وما فتحوا من هذه الفتوح العظيمة فى قواصى الأرض وأدانيها لأنهم كانوا أكثر من عدوهم عدداً ، ولا أمضى سلاحاً ، ولا أعلم بفنون الحرب وأخبر بأساليبها ومكايدها ؛ بل لقد علمت أنهم كانوا داعاً دونه فى جميع أولئك بما لا يجوز فيه تشبيه ولا يصح معه القياس

وبعد ، فلعمرى ما مشى النصر بين أيديهم أنّى قاتلوا فى شرق الأرض وفى غربها ، إلفاً ما بلغ من الضآلة عددهم ، وواقعاً حيث وقع من الضعف سلاحهم ، إلا بأسباب ثلاثة :

١ — الإيمان ٢ — الرحمة ٣ — العدل

فالإيمان يُيسر على النفس التضحية ، مهما جَلّت ، بل لقد يُغرى بها ويدفع إليها فى المطلب الجسام .

ولا تنس أن من أثر الإيمان بناء النفس على الصبر عند معاناة الشدائد وخوض المكاره ، فإن إصابة الغرض الذى يدفع المجاهد إليه إيمانه لحقيقة بأن تحد من عزمه ، وتشد من متنه ، فلا يعتريه خَوَر ولا خِذلان ، وأنت خبيرٌ بأن الصبر هو مفتاح النصر ، وصدق من قال : الشجاعة صبر ساعة ، والأمثلة على هذا مما لا يحيط به الحساب !

وبعد هذا أحسب أن العَجَب قد أخذ فيك بادىء النظر ، من نظم الرحمة والعدل فى أسباب الظفر فى الحروب والتنكيل بالأعداء ، والواقع أنهما قد يكونان أمضى من السيف فى كسب الحروب ، وذلك بأن القسوة وغلظة الكبود لا تجدى على المقاتل شيئاً ألبتة ، بل إن شهرته بين مقاتليه بالرأفة إذا تمكّن ، والمعدلة إذا حكم ، لما يخزلهم عن الاجتهاد فى قتاله ، ويُشيع فيمن وراءهم قلة الاستماتة لهم وثقل القادرين على القتال عن نجدتهم ، بل لقد يرجون النصر لهذا العدو ليتخرجوا من ظلمهم ، وينعموا فى ظلال حكم ملائكة الرحمة والرقة والعدل والإحسان

وكذلك ساد العرب الدنيا ، وما هداهم إلى هذا إلا دينهم العظيم ...

والشواهد على هذا فى حروب المسلمين مما لا يَبلغهُ كذلك الإحصاء

ويحسبنا أن نورد فى هذا الباب مثلين يصيرين : أولهما أن أبا بكر الصديق ، رضى الله عنه ، قال فى وصاته له لأسامة ابن زيد قائد أحد جيوشه ولأصحابه ، وهم مرتحلون إلى الحرب التى وجههم إليها : « لا تخونوا ولا تغدروا ولا تمثّلوا[1] ، ولا تقتلوا طفلاً ولا شيخاً كبيراً ولا امرأة ، ولا تتبعوا موليا ، ولا تقصروا نخلاً ولا تحرقوه ، ولا تقطعوا شجرة مثمرة ، ولا تذبحوا شاةً ولا بقرةً ولا بعيراً إلا للأكل ، وإذا مررتم بقوم فرّغوا أنفسهم فى الصوامع ، فدعوهم وما فرغوا أنفسهم له . الخ »

أسمعت حديثاً فى الرحمة بالعدو المقاتل والرقة له أبلغَ من هذا الحديث ؟

ذلك بأن الإسلام لا يبنى بالحرب كيداً ولا شفاء ضغن ! إنما يبنى بالحرب أعلى المُثُل : فإما دفع أذًى ، وإما بسط الحق والخير والفضيلة فى هذا العالم . قال الله تعالى يخاطب رسوله الكريم : (وما أرسلناك إلا رحمة للعالمين) صدق الله العظيم

ولقد قال تعالى فى كتابه العظيم : (إن الله يأمرُ بالعَدلِ والإحسان ، وإيتاء ذى القربىَ ، وينهى عن الفحشاء والمنكر والبغى ، يعظكم لعلكم تذكرون)

وكيف ظنك بدين يأمر بالإحسان حتى فى القتل ! قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : (إذا قَتلتم فأحسنوا القِتلة) .

أما التمثيل حتى بالحيوان فقد أغلظ هذا الدين فى النهى عنه ، واشتد فى الوعيد عليه ؛ فقد رُوى عن النبى صلى الله عليه وسلم أنه قال : (مَن مَثّل بحيوانٍ فعليه لَعنة اللهِ والملائكةِ والناس أجمعين)

وتلك كانت سنة الغزاة والفاتحين فى صدر الإسلام

وإن تعجب فعجب أن يكون ذلك أدب الإسلام فى عصر كان من السائغ المألوف فيه سَوْم المحكومين للقهورين ألوان الخسف من إهدار الدماء ، وتخريب الدور ، واستصفاء الأموال ، فى غير جرم يُقترف ، أو إثم يجترح ، حتى كاد يكون ذلك شرعاً مشروعاً وواجباً مفروضاً !

---

(١) مثل بالقتيل : نكل به ، كأن يقطع أنفه أو يشق بطنه ، أو يقطع عضواً من أعضائه

وأما المثل الثانى فأجلوه لك فى حادثين مأثورين عن عمر بن الخطاب ، رضى الله عنه ، وهذان الحادثان معروفان شائعان ، وما كنت لآتى بهما لولا أنه قد اقتضى الإلمام بهما نظم المقال : وأولهما ما حكى من أن جبلة بن الأيهم — وكان آخر ملوك بنى غسان — أسلم وخرج إلى مكة ، فلما كان فى بعض طوافه ، داس رجلٌ من فزارة على طرف ردائه فحل أزراره ، فلطمه جبلة ، فاستعدى الرجل عليه عمر ، فدعى به ، وخيره بين أن يترضى الرجل أو يقيد له منه . فقال : يا أمير المؤمنين : أتقيده منى وأنا ملك وهو سوقة ؟ فقال : ولكن الإسلام سوى بينكما !

وأما الحادث الثانى ، فما حكى عن رجل من أهل مصر قدم على عمر ، فقال : عائذ بك يا أمير المؤمنين ! فقال رضى الله عنه : عذت بمعاذ ! فقال : لقد ضرب ولد عمرو بن العاص ولدى (وكان عمرو يومئذ عامله على مصر) ، فأرسل فى طلبه معه ولده واستقاد من الولد والوالد جميعاً ؛ ثم أقبل على عمرو وقال : يا عمرو بماذا استعبدتم الناس وقد ولدتهم أمهاتهم أحراراً ؟

* * *

هذه الأمثلة ، على قلتها ، تريك مبلغ ما يدعو إليه الإسلام من الرحمة بالمقهور والرقة له ، وإقامة العدل بين الناس ، مهما يكن الفرق بين الظالم والمظلوم ، وأخيراً توطيد الحرية وتوكيدها على أنها حق طبيعى للانسان ، كائناً من كان

أما الحرب فى هذا العصر ، فلقد صارت إلى ما ترى ، وهى إن امتازت بشىء فأبرز ما فى وجوه هذا الامتياز أن ضحاياها وصالو حرها من المستأمنين الوادعين ، أصبحوا أكثر كثيراً ممن تجردوا للقتال ، واستنفروا للكفاح والنزال ؛ بل لقد تعدل الموبقات القواصف من الطائرات عمداً عن المسالح ومستودعات الذخائر ، وثكنات الجند ، وغير ذلك من أسباب الحرب ، إلى دور المستأمنين ، حيث المرأة ترضع ولدها ، وحيث الرجل الذى نام ليستجم للعمل من بكرة الصباح إلى غاية النهار الأطول ، سهماً على الأم الشيخة والزوج والطفل الثلاث أو الأربع ، وحيث المريض المدنف يتلوى على الجنبين من ألم وعذاب — لقد تعدل تلك المدمرات القواصف إلى هؤلاء عمداً ، وتزلزل عليهم الأرض زلزلة ، وتدمر الدور تدميراً ، فإذا هؤلاء أجزاء تتناثر ، وأشلاء تتطاير . فمن سلم منهم على الموت ، فليستقبل حياة شراً من الموت

فإذا جاءك أن الإسلام فتح كل هذا الفتح ، وملك كل هذا الملك ، وانبسط له على وجه الأرض كل ذلك السلطان فى أقل من قرن واحد ، فإن السر لا يعدو ما قدمنا لك من قوة الإيمان ، وإشاعة العدل بين الناس ، وإيثار الرقة والرحمة بالإنسان وبالحيوان !

وإذا طلعت عليك الأنباء فى كل صباح وكل مساء بأن الجيش اليونانى الصغير الضئيل لا يفتر لحظة واحدة عن صفع الجيش الطليانى الضخم الكثيف باليد ، وركله بالرجل ، إذ لا يكاد يرى فيلقه وكتائبه إلا من الأقفاء من انهزام بعد انهزام — إذا طالعتك الأنباء كل ساعة بهذا فصدق ، وأحل الأمر كله على قوة الإيمان بحق الوطن المعتدى عليه بغير إثم ولا عدوان !

فإذا قال لك قائل ، لقد ذهب عنك ما فعلت القوة الفنية من اجتياح للممالك ، وقبض على نواصى الشعوب ، واستصفاء لأموال الأمم ، واقتناص لدمائها ، واتخاذها عبيداً ، فقل له لا تعجل بالحكم ، فإن الله ليملى للظالم ، ولتعلمن نبأه بعد حين

عبد العزيز البشرى

الافصاح

المعجم العربى الفذ ، وهو خلاصة وافية للمخصص وغيره من المعجمات ، يرتب الألفاظ العربية على حسب معانيها ، ويسعفك باللفظ للمعنى المراد ، يعين العلماء على وضع المصطلحات العربية فى العلوم المختلفة ، ولا يستغنى عنه مترجم ولا أديب ، ٨٠٠ صفحة تقريباً ، طبع دار الكتب ، أشرفت طبعته على النفاد ، ثمنه ٢٥ قرشاً يطلب من مجلة الرسالة ومن المكتبات الكبيرة ومن مؤلفيه :

حسين يوسف موسى
المدرس بالمدرسة السعيدية الثانوية بالجيزة

عبد الفتاح الصعيدى
رئيس التحرير بمجمع فؤاد الأول للغة العربية